الحياة الرهبانيّة بين الأمس واليوم

قدس الأب پيتر هانس كُولْفِنْباخ اليسوعيّ(*)

ينبغي لنا اليوم، ونحن في البلد الذي شهد بالأمس نشأة الحياة الرهبانيّة، أن نتساءل: ما معنى هذه الحياة؟ نحن لا نطرح هذا السؤال بسبب تضاؤل عدد الرهبان، لأنّ هذه المشكلة لا وجود لها إلّا في جزء من أجزاء العالم، وإنّ الله، في تاريخه معنا، يُفضِّل دائمًا الأعداد الصغيرة. فعلينا أن نتوقّع أعدادًا قليلة من الرهبان، إذا سارت حياتنا حقًّا على طريق الإنجيل الضيّقة.

فالقضيّة هي - أكثر ما تكون - قضيّة قيمة حياتنا المُكرَّسة. قبل المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، كانت الحياة المُكرَّسة تحتكر مجموعة من المُهِمّات: القداسة والتربية والإرسالِيّات ومكافحة الفقر والمرض. غير أنّ المجمع من جهة، والتطوُّرات الاجتماعيّة الحديثة من جهة أخرى، قد حرمتنا هذه المراكز. فإنّ الجميع - رجالًا ونساء - مدعوُّون إلى القداسة؛ وكذلك فإنّ «المُنظّمات غير الحكوميّة» تتزايد عددًا، فتحقّق - بدرجة عالية من السخاء والكفاية - المحبّة التي كدنا أن نكون بالأمس الوحيدين المهتمّين بها والمدعوِّين إليها.

ومن جهة أخرى، أصبحت الكنيسة كنيسة الأساقفة، وهم، مع

(*) Peter-Hans Kolvenbach الرئيس العامّ على الرهبانيّة اليسوعيّة. ونصّه المنشور هنا هو محاضرة أُلقيت بالفرنسيّة أمام جمهور من الرهبان والراهبات في أثناء زيارته القاهرة - بعد زيارته لبنان وسورية -، يوم ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٠.

ذلك، يصرّون على تعزيز دور العلمانيّين. ففي السينودوسات التي اشتركتُ فيها، كنتُ دائمًا أستغرب صمت الأساقفة في ما يتعلّق بالحياة المُكرّسة. ولقد أجابني أحد الكرادلة، وهو رئيس أساقفة - إذ سألتُه عن سبب هذا الصمت - قائلًا إنّ الأساقفة يعتبرون بديهيًّا أنّ الحياة المُكرّسة مُناطَة بقداسة البابا، فما صمتهم إلّا من باب الاحترام والبصيرة.

بين الأمانة والإبداع

ورغم ذلك، فقد انعقد سينودس خاصّ بالحياة المُكرّسة. وفي الإرشاد الذي أصدره قداسة البابا بعد انعقاد السينودس، لم يُخفِ رغبته في أن تكون الحياة المُكرّسة أكثر ظهورًا، وأكثر وضوحًا في استخدامها موهبتَها الخاصّة، وأكثر جرأةً في شهادتها للإنجيل. وهو يوصي بما نُسمّيه «الأمانة المُبدعة»، التي تعني الأمانة الأصيلة لروح مؤسّسينا - وهي مواهب يهبها الروح القدس للكنيسة -، كما يعني في الوقت نفسه الإصغاء إلى نداءات عصرنا وحاجاته - وهي غالبًا ما تختلف عن نداءات عصر التأسيس وحاجاته-.

إنّ إرشاد البابا يوحنّا بولس الثاني هذا هو منطلَقُ ما يُسمّيه بعض الناس في أيّامنا «إعادة تأسيس» الحياة المُكرّسة. قد تبدو هذه العبارة غير مناسبة، إلّا أنّنا نُدرك جميعًا أنّنا في حاجة ماسّة إلى شيء أبلغ جذريّة من بعض التأقلم الضروريّ، لكي نعيش موهبتنا في عصرنا هذا. وعلى كلّ حال، فإنّ لفظ «إعادة التأسيس» هو صدى لاختبار اختبرته تيريزيا الآبليّة، إذ كانت تستمع - في أثناء فترة الاستراحة الجماعيّة - إلى ما قام به مؤسّسو رهبانيّتها في الماضي من مآثر مُثيرة، فلم تستطع أن تمتنع أن تُذكّر أخواتها بأنّ مستقبل الكرمل لم يَعُد يعتمد على المؤسّسين الأوّلين، بل على أصالة حياتهنّ الشخصيّة؛ فإن لم يسعَيْن بفضل أمانتهنّ إلى «إعادة تأسيس» موهبتهنّ في الزمن الذي يعشن فيه، فما من مستقبل لرهبانيّتهنّ.

الموهبة الأصليّة: الملكوت

إنّ تنوّع الرهبانيّات المُذهل، إلى جانب ما تُؤدّيه من خدمات مُميَّزة

بفضل مُختلف أنواع نشاطها، يُمثّل خطرًا يجعلنا ننسى إلهام الحياة المُكرّسة الأصليّ والمُميّز. فنحن هنا في مصر، حيث نفّذ القدّيس أنطونيوس حرفيًا كلام الإنجيل، فباع كلّ شيء وترك العالم في سبيل الملكوت الآتي، ندرك أنّ الحياة المُكرّسة لا تُشعُّ إلّا انتظارَ حلول الملكوت في صميم العالم وفي خدمته؛ فكثيرًا ما ننسى أنّ الموت ليس له الكلمة الأخيرة، لأنّ الآب - أبانا - ينتظرنا حتّى نحيا معه للأبد.

كان أنطونيوس يرى كنيسة عصره تتربّع في الحرّيّة بعد عصر الاضطهادات، وتتنظّم في هذه الأرض ولأجل هذه الأرض، فاقدةً هكذا المعنى الأخيرِيّ الكامن في الدعاء: «ماراناتا»، أي «تعال، أيّها الربّ». فما كان من أنطونيوس إلّا أنّه قرّر أن لا يكون له أبناء ولا عمل، ولا ترقية ولا فاعليّة، ولا مال ولا مستقبل مُؤمَّن، إذ إنّ جميع هذه التخلّيات التي نادى بها تُعلن ملء الحياة.

نراه يُقيم في قبر فارغ حتّى يتّضح له جليًا أنّ القيامة لها معنى، وقد رغب في أن يكتشف الآخرون هذا المعنى. فكان يعيش شاهدًا على نهاية الأزمنة، في مصر حيث كان الناس - في الأمس كما في أيّامنا - يتزوّجون ويكافحون ليكسبوا قوتهم، حتّى ينجحوا في عملهم ويكونوا مستقلّين ويُقرّروا مصيرهم بأنفسهم قدر المستطاع. لم يَدِن أنطونيوس هذا النمط من الحياة، بل ساعد أخته على تأمين مستقبلها. ولمّا حاول رهبان البرّيّة - في ما بعد - أن يعرفوا مَن هو الأكثر قداسة في مصر، اكتشفوا بكلّ تواضع أنّها أُمّ تقطن في الإسكندريّة، كان زوجها يُعذّبها جدًّا، ورغم ذلك كانت تثابر على رعاية أبنائها وهي ترتّل النشيد المثلّث التقديس.

فليس تكريسُ أنطونيوس إدانة لنمط حياة الناس، بل هو إتمام لها في بُعدها الأخيرِيّ، في السعي نحو الملكوت الذي يستطيع هو وحده أن يُحقّق الحبّ البشريّ، الملكوت الذي هو ثروتنا الحقيقيّة الوحيدة. إنّ الملكوت يستطيع هو وحده أن يملأنا فرحًا للأبد. ففيما يقع معظم الناس في تجربةِ تجاهُلِ معضلة الموت، فإنّ الحياة المُكرّسة تعيشها صراحةً. في خدمة الناس.

وينبغي لنا أن نتجنّب خطأً جسيمًا. فالأزمنة الأخيرة ليست شيئًا، لأنّ الآتي هو شخص، هو الربّ. والربّ هو منذ الآن في وسطنا، كما تشهد على ذلك قداديسنا. فنحن نحتفل بها «إلى أن يأتي الربّ» (١ قورنتس ١١/ ٢٦)، كما أنّنا نحيا بها، فننمو في الصداقة الحميمة مع الله، تلك الصداقة التي تظهر في صَلاتنا وفي خياراتنا الخاصّة بنمط حياتنا وعملنا. فكلُّ لحظة وكلُّ حَدَث يمكن أن يكونا بابًا يدخل منه الربُّ في حياتنا. فما نُحيي ذكراه في الحياة المُكرّسة، ليس هو الموت، بل ربّ الحياة الذي يأتي إلينا ويُشكّل وجودَنا حتّى أدقّ تفاصيله، ليرشدنا إلى ملء الحياة، إلى الحياة الأبديّة. وعليه، فإنّ الذي يأتي يقتحم حياتنا، ويصنع كلّ شيء جديدًا، ويجعل كلّ شيء «فِصحًا».

سرّ الفصح

فهل نستغرب إذًا أن تكون الحياة المُكرّسة حاضرة حيث يبدو أنّ الموت يسيطر، بالقرب من المرضى الذين لا أمل في شفائهم، وبجوارِ المنازعين، بين ضحايا البؤس واليأس؟ غير أنّ الحياة المُكرّسة ليست فقط من أجل المتروكين والمنبوذين، بل هي في خدمة جميع الذين يريدون أن يتعلّموا أن يحيوا، وأن يكتشفوا الحياة اكتشافًا جديدًا، وأن يحيوا الحياة الحقيقيّة، وهي تشهد على فصح الربّ بفضل رجائها وثقتها بالذي يأتي.

إنّ كلّ جماعة رهبانيّة - متعبِّدة كانت أو رسوليّة - هي أسرة فصحيّة نتعلّم فيها كيف نساعد العالم عبر موت يسوع وقيامته، أي بموتنا لأنفسنا، وموتنا لماضينا في سبيل مستقبلنا، وقيامتنا في القداسة، وفي العلاقة الحميمة بيسوع، بالرغم من عبء الحياة اليوميّة، لتتجدّد دومًا فيه ولأجل الآخرين. وقد روى لنا القدّيس أثناسيوس في سيرة القدّيس أنطونيوس أنّه، بعد سنوات طويلة من الموت في البرّيّة، خرج من اللقاء الطويل بينه وبين الله بمنظر شابّ، وكأنّه قد قام من الموت.

وإنّنا، في صميم حياتنا المُكرّسة، سنعيش علامات موت، إذ إنّ

العديد من الرهبانيّات يواجه الموت. فمن الطبيعيّ أن نَبذل قصارى الجهد لتجنّب هذا الاحتمال المؤلم. وبالرغم من ذلك، فحتّى عندما أراد ربُّ الحياة أن يستخدمنا في ظروف تاريخيّة معيّنة، وحين نشأت رهبانيّة تجاوبًا منها مع هذه الدعوة، فذلك لا يعني أنّ هذه الرهبانيّة قد حصلت على مواعد الحياة الأبديّة. ففي ضوء سرّ الفصح، يدعونا احتمال الزوال إلى أن نركّز على ما هو أساسيّ في موهبتنا، وعلى تعاون واسع مع الآخرين في خدمة الحياة.

إنّ الحياة المكرّسة تجتاز الموت أيضًا عندما تُرغمنا على أن نُجري انقلابات في نمط حياتنا، كثيرًا ما تكون مُحيِّرة، حتّى نقدر أن نواصل خدمة الكنيسة في العالم. وإنّ عبارة «الأمانة المُبدعة» تُعبِّر خير تعبير عمّا يتوجّب علينا القيام به، غير أنّها تُدخل في الحياة المُكرّسة توتُّرًا قد يصعب علينا تحمُّله.

فهنا أيضًا تُطرح قضيّة الحياة والموت، لأنّ الأمانة الحرفيّة تقتل - بحسب قول القدّيس بولس - لكنّ الروح الخالق يُحيي. غير أنّه لأمرٌ مؤلم أن نُميِّز ما هناك من حدود دقيقة بين أمانة وأمانة، وإبداع وإبداع. وهذا ما نعلمه جيّدًا لأنّنا اختبرناه. إلّا أنّنا، إذ نقبل هذا التوتُّر، ولا نهرب منه، ننال من الربِّ المستقبلَ الذي يتوقّعه منّا، عندما يريده وكيفما يريده.

إن كانت هناك علامات موت، فهناك علامات حياة أيضًا. فما أكثر الرهبانيّات التي أحيَتْ أو أعادت الحياة إلى ينابيعها الروحيّة، وتراثها الذي تستحقّ أن تفتخر به، وتاريخها الحافل بأشخاص عاشوا ملء الحياة الفصحيّة. وفي وجه الحاجات التي لا يحصى عددها والتي تستدعي مساعدتنا، نقول إنّ الرسالات الجديدة التي أقدمنا عليها هي أيضًا علامات حياة. وعليه، فإذا كنّا في حالة انفتاح، أمكننا دائمًا أن ننشئ جماعة جديدة وأن نلتزم عملًا جديدًا. وهناك أيضًا نداء جديد يوجَّه إلينا أناس من جميع الأعمار، سواء أكانوا شركاء، أم مؤيِّدين، أم واهبين أنفسهم، وهم يرغبون في أن يستلهموا روحانيّتنا ونمط حياتنا. ولا يخلو

المجتمع من المتطوّعين المستعدّين أن يُساعدونا في رسالتنا.

ومن علامات الحياة أيضًا، تَقاسُمُ كلمة الإنجيل، وبهاء صلوات تسبيح الله، والصلاة الطقسيّة، وجميعُها يؤول إلى نموّ حياتنا الجماعيّة في نور القيامة.

ما كُلُّ ذلك سوى بعض الأمثلة، وهي تبغي إقناعنا بأنّ الحياة المُكرّسة تتبع الحمَل في أيّامنا وفي كُلّ مكان، تتبع الحمَل المذبوح والواقف، الحمَل الذي مات وما زال حيًّا.

حياة الجماعة

ويجدر بنا أن نشدّد هنا بوجه خاصّ على علامة حياة أخرى، ألا وهي حسّ الجماعة المتجدّد. فمن صفحات الكتاب المقدّس الأولى، يتّضح لنا أنّه لا يحسُن أن يكون الإنسان وحده. وعندما كان الربُّ يشفي المرضى، لم يفعل ذلك ليُعيد إليهم صحّتهم وعافيتهم فقط، بل ليُعيدهم إلى الجماعة البشريّة، وقد فصلهم عنها مرضُهم - وكان الناس يخطأون باعتباره عقابًا من الله - وإن عرّضهم الانفصال للموت.

وأمّا اليوم، فإنّ تقدُّم العلم والتقنية يؤيّد نزعتنا إلى الحرّيّة والاستقلال. غير أنّنا نتعرّض هكذا لأن نجد أنفسنا وحيدين. فلقد صدق سفر التكوين إذْ قال إنّ ما من أحد يستطيع أن يكون ذاته ولا أن يُصبح ذاته بمعزل عن الجماعة؛ ما من أحد بوسعه أن يعيش كالذرّة الوحيدة، لأنّه لا يحسُن أن يبقى الإنسان وحده.

ولكن، من جهة أخرى، ليس العيش في داخل الجماعة بالأمر السهل، لا في ما يتعلّق بالأشخاص، ولا في ما يتعلّق بالشعوب على المستوى العالميّ. فإن كان العالم يتزع إلى التوحيد، إلى «العولمة»، فإنّ القرية الكونيّة التي هي الآن في طور الإنشاء لا تزال تظهر منقسمةً، موسومةً بالعنف والحروب، وبالتوتّرات والنزاعات. ونحن نختبر أنّ ممارسة الحياة الجماعيّة قد تكون مؤلمة، فهي مزيج من الأفضل

والأسوأ، تجذب دعوات رهبانيّة جديدة، وقد تكون أيضًا سبب الابتعاد عنّا.

ومع ذلك، يعود الفضل في وضع «الشركة» في الروح القدس في قلب الكنيسة، إلى المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. فإنّ دعوتنا إلى أن نعيش حياة جماعيّة، كإخوة وكأخوات، «بقلب واحد ونفس واحدة» (رسل ٤/ ٣٢) تصبح عندئذ مُهمّةً رسوليّة. ففيما نُكثر الكلام على الوحدة في العالم، والشركة في الكنيسة، لا يزال هناك فاصل بين كلامنا والواقع. فعلينا هنا أن نؤدّي شهادة، ألا وهي أنّ أناسًا غير مُهيَّئين لتحمُّل عبء الحياة الجماعيّة ويلتزمونها مع ذلك، في قوّة روح يسوع، يصبحون علامة أمل!

هناك نصّ من النصوص الكنسيّة يصفنا «بخبراء الإنجيل»، ويَلقُبنا «بخُبراء في الشركة». فإنّ العيش والعمل معًا والتميز جماعيًّا هي أُمور تجعل من أشخاص غير مهيَّئين لأن يعيشوا معًا، وقد وحّدهم الربُّ، جماعةً وأسرة حقيقيّة مجتمعة باسم الربّ.

وعليه، ففي كنيسة تتقدّم على طريق الشركة في الروح القدس - وإن بصعوبة وكأنّها مُرغَمة على ذلك - تشهد الحياةُ الرهبانيّة بجُرأتها على ما يريده الربُّ لشعب الله بأجمعه. وهي لا تقوم بذلك مستندة إلى مثال مجرّد أو نموذج نظريّ، بل مُثبتة فقط كيف أنّ رهبانًا وراهبات يختلفون في طباعهم وشخصيّتهم كلّ الاختلاف، ولكنّهم يُغذّون بسرّ الإفخارستيّا، لا يـأمون من أن يتحمّلوا يوميًّا حمل الحياة الجماعيّة - الثقيل والخفيف - ليُجيّدوا فيها تلك الوحدة التي يريدها الربّ بحرارة لكنيسته.

يبدو لنا تحقيقُ ذلك أمرًا مستحيلًا. ولكنّه أمر ممكن للذين يحيون بالله وفي يسوع. أجل، لسنا كائنات سماويّة، فلسنا في مأمن من تاريخ عصرنا المُتّسم بالروح الانفراديّة وبالبحث عن مراكز ونُتع ومكانة شخصيّة. ولكنّ الربّ يدعونا إلى أن نعيش تاريخًا آخر، أعني تاريخه هو. وتاريخه هذا يُعارض تاريخ عالمنا، ويجعلنا نختار نمطَ حياة قد يبدو غريبًا

لأوّل وهلة، ولكنّه يسمح فعلًا بأن نكون شهودًا للجماعة الحقيقيّة التي يُعِدُّها الربُّ حين يُصبح «كلّ شيء في كلّ شيء» (١ قور ١٥/٢٨). فما الحياة المُكرّسة إلّا هذه المحاولة لنعيش هذا التاريخ الآخر، تاريخ الفصح من الموت إلى حياة يسوع، لأجل العالم.

ومن البديهيّ كلّ البداهة أنّ قداسة الجماعة الرهبانيّة لا تتحقّق بدون قداسة أعضائها شخصيًّا. غير أنّ هذه القداسة ستُعاش في شركة القدّيسين، أو قُلْ في شركة رهبان هم على طريق القداسة. فالجماعة التي تجرؤ على أن تجتاز ما يلازمها من توتّرات ونزاعات، تُعتبر حَجر زاوية يبني الربُّ عليها البيت.

ورغبةً منّي في أن أتجنّب كلامًا مُجرّدًا، أستميحكم بأن أستشهد بزملائي في «رابطة الرؤساء العامّين»، وقد اقترحوا بعض الاتّجاهات لتجسيد كلّ ذلك وتحقيقه:

- الاقتناع بأهمّيّة الحياة الجماعيّة، وإعارة الأولويّة لالتزام تشييدها.
- الخروج من الروح الانفراديّة - وهي تتعارض مع المنطق المسيحيّ - لكي نعيش الروح الجماعيّة في المسيح.
- التحوُّل من التنافس ومن إرادة الاكتفاء الذاتيّ إلى التعاون البنّاء.
- الاقتناع - في ضوء الإنجيل - بأنّ القيام وحدنا بكلّ شيء أمرٌ مستحيل، فهو يُؤدّي إلى نتائج تتعارض والهدف المنشود.
- الانفتاح على الحوار، اقتناعًا منّا بأنّ الإصغاء يولّد حياة جديدة، وبأنّ حياتنا الجماعيّة يمكنها أن تتجدّد حقيقةً.

تنوُّع مواهب الرهبانيّات

لا شكّ أنّ الحياة الرهبانيّة تتضمّن عنصرًا قد يبدو أنّه يخالف البحث عن الشركة في الروح القدس، أعني التراث الروحيّ الخاصّ بكلّ رهبانيّة، أي ما نسمّيه «موهبتها». أفليس حقيقيًّا أنّه، في خضمّ تعدُّد الرهبانيّات المُذهل، يستهوي كلَّ رهبانيّة إثباتُ ذاتها كمؤسّسة مستقلّة،

ممّا يُمثّل عائقًا حقيقيًّا يَحُول دون الشركة في الحياة والعمل؟ على نقيض ذلك، فقد تجرّأ البابا يوحنّا بولس الثاني - إذ كان يُخاطب الرهبان والراهبات في البرازيل قبل عشر سنين - أن يلفت نظرهم إلى أنّ تنوُّع المواهب هو عنصر شركة، لأنّ تعدُّديّة المواهب الرهبانيّة في الكنيسة هي شهادة على غنى زينة عروس المسيح، «فهي تُحقّق تلبية دعوة الربّ تحقيقًا متعدِّد الأشكال». إنّ هذا التنوُّع يُظهر ما لكلمة الله المتجسّد وما لجماعة المؤمنين به من «طبيعة مُبرقشة» و«دينامية متعدِّدة القيم». لقد صدق مَن قال إنّ الربّ قد بلبل اللغات في بابل لأنّه يكره الرتابة والمساواة، لأنّه يريد أن يخاطب كلّ واحد بحسب شخصيّته الفريدة، وأن يدعو كلّ واحد باسمه.

ومع أنّنا مُهدَّدون دومًا بأن نُحوِّل هذا التنوُّع إلى شكل من أشكال التمييز - فكثيرًا ما نستغلُّ فوارقنا لنفهم حقوقًا أو نستأثر بفوائد أو تكريمات - إلّا أنّ الإنجيل يُبيِّن لنا أنّ الأمر ليس كذلك في الشعب الجديد الذي اختاره الله. فنُلاحظ أنّ الربّ، عندما اختار تلاميذه، لم يقتصر على فئة واحدة، بل إنّ بعضهم أتى من الريف وبعضهم من المدينة، بعضهم كانوا رجالًا وبعضهم نساء، بعضهم متزوِّجين وبعضهم عزّابًا، وكانت لهم آراء سياسيّة مختلفة. فمَن حتَّم على الرجل والمرأة، وعلى العلمانيّ والكاهن، نمطَ حياة واحدًا، تجاهل ما يريده الربُّ من تنوُّع لأجل شركة الجميع - رجالًا ونساء - في الربّ.

تقع على عاتقنا إذًا مسؤوليّة دقيقة، بحسب الإنجيل. فلقد مضى زمن الشعور الطبقيّ، لأنّ الأبديّة هي لروح الله الذي يُدخلنا في شركة الثالوث. ولقد مضى، إلى ذلك، زمن إضعاف حسّ تراثنا الخاصّ، لأنّ الأبديّة هي لروح العنصرة حيث يُرنّم كلُّ واحد مع الآخرين عظائم الله بلغته وثقافته الخاصّة، بحسب دعوته الخاصّة ورسالته الشخصيّة. فإنّ الإكليريكيّ والعلمانيّ، الكاهن الراهب والكاهن الإيبارشيّ، الراهبة والعلمانيّة الملتزمة، الراهبة المتعبِّدة والمنتمية إلى مؤسّسة علمانيّة، المتوحِّد والكِنُوشيّ - ويمكننا تطويل اللائحة - إنّ كلّ واحد قد نال موهبة، لا ليحتفظ بها له وحده، بل ليُغني بها جسد المسيح، وهو الكنيسة.

في الكنيسة الجامعة والكنائس المحلّيّة

إنّ الحياة الرهبانيّة التي تعيش ملء دعوتها ورسالتها لا يجوز لها أن تضنّ على الكنيسة بمساهمتها الخاصّة. ففي نظر القدّيس بولس، تُشيِّد الكنيسة على التنوُّع، لا على الفوضى، على التكامل ولا على عزلة التفرّد (راجع ١ قورنتس ١٢ و١٤). فإنَّ علامة الحياة التي تُمثِّلها الشركة في الروح القدس - تلك الشركة المتجسِّدة والمعاشة في الحياة الجماعيّة - تفقد أصالتها إن كانت لا تُعاش في قلب كنيسة الربّ. وهنا أيضًا، علينا أن نتعلّم الكثير. فإنّ الحياة المكرّسة ليست بنية كنسيّة تقوم على الإكليرس والعلمانيّين، فالقدّيس أنطونيوس قد وُهب لنا بعد أن أسّس الربُّ الكنيسة بعدّة قرون. نحن، كما ردّده البابا يوحنّا بولس الثاني، «بنية من أجل الكنيسة»، و«موهبة من الروح القدس من أجل الكنيسة الجامعة». ولكنّه ذكّرنا في الوقت نفسه بأنّ هذه الكنيسة الجامعة تتحقّق في مؤسّسات الكنيسة المحلّيّة، وبأنّ طريقنا هو فعلًا الاتّحاد بالكنيسة الجامعة في التأمُّب الرسوليّ، وإن كان ذلك يتحقّق دومًا عبر الكنيسة المحلّيّة.

وحسبنا أن نُلقي نظرة إلى وضع الحياة الرهبانيّة الراهن في عالم اليوم، لنكتشف أنّه ما من منطقة إلّا والثقة المتبادلة بين الأساقفة والحياة الرهبانيّة غيرُ موجودة فيها. وقد نجد أيضًا بعض الحالات - وإن كانت استثنائيّة - حيث تُعلن الحياة الرهبانيّة أنّ هدف وجودها هو أن تُكوِّن «كنيسة مُناهضة» تشهد على جذريّة الإنجيل، فتُعارض بالتالي مؤسّسات السلطة الكنسيّة «غير الإنجيليّة». ولكن ما نألفه بوجه عامٍّ هو نوع من «اللامبالاة الوديّة» حيث يبدو كلُّ شيء مُنظَّمًا قانونيًّا، ولكن حيث يتبع كلُّ واحد طريقه، متجاوزًا الحدَّ الأدنى من العلاقات، هذا بمشروعه الرعويّ، وذاك بروحانيّته وأولويّاته. لا ندّعي أنّ هناك «كنيسة متوازية»، إلّا أنّ الأساقفة والحياة الرهبانيّة يسيرون على طُرق متوازية، تارة خوفًا من تسلُّط الأساقفة على الرهبانيّات، وتارة رغبةً في الحفاظ على التعايش السلميّ عندما تُستنفَد إمكانيّة التفهُّم والتفاهم. ومع ذلك، فلا ينبغي أن نتجاهل أنّ هناك مناطق من العالم تتّسم بعلاقات وثيقة وتعاون بنّاء بين

الأساقفة والحياة الرهبانيّة، وإن وجب علينا أن نتوقّع، حيثما يعمل الناس، حدوث سوء تفاهم وتوتّرات حتميّة، إن لم تكن ضروريّة.

إنّ خبرتنا تحثّنا على ألّا ننحصر في هذا الموقف، بل أن نتجاوزه، إذ كشف لنا المجمع الڤاتيكانيّ الثاني - بعمل الروح القدس - أنّ الكنيسة هي شركة. فبالرغم من جميع ألوان الإخفاق والشهادة المضادّة، نرى أنّ كنيسة الربّ تتصرّف يومًا بعد يوم كـ«شركة» كنسيّة.

هذا وإنّ قداسة البابا - مع أنّه مفطور على شخصيّة قويّة - يعمل جماعيًّا في جميع القرارات الهامّة، ويعزّز تجنيد طاقات جميع المسيحيّين في بذل مجهود مشترك يجمع الإكليرس والعلمانيّين والحياة الرهبانيّة، ويواصل - بدون أن تثبّط عزيمته - طريقَ المسكونيّة والحوار في عالمنا هذا الذي يتوق - رغم المظاهر - إلى الوحدة. أمّا الأسقف، فإنّه يُمارس اليوم مسؤوليّته الخاصّة بالاتّفاق مع سائر الأساقفة ومع القُوى الحيّة الموجودة في إيبارشيّته، كما أنّ العلمانيّين يصبون إلى الشركة بإصرار، وبنوع من الحنين إلى جماعة أورشليم الأُولى، وذلك من خلال حركات تتنوّع أشكالها كلّ سنة. لقد أصبح التجاهل أمرًا مستحيلًا. فعلى كلّ حركة تنتمي إلى شعب الله أن تجد مكانها كي تُساهم، قدر استطاعتها، في بُنيان كنيسة الربّ.

واليوم، إذا لاحظنا أحيانًا صراعات على السلطة بين الهيئات الكنسيّة المختلفة، وإذا قلقنا بسبب ما يعتري كنيسةً أو رهبانيّة من مشاكل، فإنّنا نختبر دعوة الربّ لنا إلى أن يحمل بعضنا أثقال بعض، إن أردنا أن نكون حقًّا أعضاء في جسد المسيح. إنّ روح الربّ يدفعنا إلى الشركة في داخل الثالوث، ممّا يتطلّب منّا توبة القلب، وممّا يعني أيضًا أنّ كلّ ما لا ينسجم وروح الشركة هذا، هو بمثابة اختناق روحيّ يُعرّض للموت.

إعلان البشارة الجديد

نخطو الآن خطوة أُخرى. ففي ٩ آذار/مارس ١٩٨٣، استخدم البابا

يوحنّا بولس الثاني لأوّل مرّة عبارة «إعلان البشارة الجديد». وكان ذلك في هايْتي، في مدينة پور - أُو - پرانْس. وبدت العبارة حينذاك طبيعيّة، لأنّه كان يخاطب أساقفة أمريكا اللاتينيّة، ويحثُّهم على الاحتفال المقبل، في العام ١٩٩٢، بذكرى اكتشاف كولومبُس القارّةَ الأمريكيّة، فكان عليهم إذّاك أن يعلنوا البشارة بهمّة مُتجدّدة وبتعابير جديدة. ومنذ ذاك الوقت، أخذ البابا يوحنّا بولس الثاني يستعمل العبارة ليُعِدّ جميع القارّات للاحتفال بيوبيل سنة ٢٠٠٠. ولقد أخذ مضمون العبارة يتحدّد شيئًا فشيئًا بمزيد من الدقّة.

ففي العالم بأسره، يصطدم إعلان البشارة باللامبالاة الدينيّة، وإن بأشكال مختلفة. وكلمة البشارة لا تقع اليوم على أرض الجهل أو الرفض، بقدر ما تقع على أرض جوفاء. فبعد فترة من الإلحاد العدوانيّ - لا يزال يعانيه جزء مُهِمٌّ من كُرتنا الأرضيّة - يرسخ الآن نوعٌ من الإلحاد العمليّ، وإن تعايَش معه تديُّنٌ تتنوّعُ أشكالُه ويتّسم أحيانًا بتذوّق ما هو باطنيّ. وفي داخل العالم المسيحيّ نفسه، يقوم فاصل بين تصرُّف المسيحيّين والرسالة التي تُبلِّغها الكنيسة المُعلِّمة. وإنّ عدمَ تفاهم فادحًا يُغَذّي نجاح بعض الشعارات المألوفة المعروفة: «نعم ليسوع! لا للكنيسة!»، أو «نعم للتديُّن! لا لإله شخصيّ!».

ففي هذه الأجواء، حيث يعيش الناس فعلًا بدون إيمان ولا دين ولا إله، كيف تُعلَن حقيقة البشارة بكاملها؟ لا بدّ من الإصغاء إلى كلّ قيمة إنسانيّة أصيلة، كالتضامن، والعدالة والسلام، والحفاظ على البيئة والصحّة. ولكنّ الصعوبة تظهر في التبشير بإله شخصيّ تجسّد تاريخيًّا في شخص يسوع ابن الله، في تبشير يلهمه الروح القدس الذي يتكلّم على لسان كنيسة مبنيّة على السلطة. ومع ذلك، فلقد عاد البابا يوحنّا بولس الثاني فأكّد، في أثناء انعقاد السينودس من أجل أوروبّا، أنّ إعلان البشارة لا يقوم على فرض بنية أو على تطوُّر عقيدة، بل على لقاء الربِّ لقاءً شخصيًّا، لتتأسّس عليه حضارة حبٍّ جديدة وثقافةُ عدالةٍ وسلام جديدة. سيصبح إعلان البشارة الجديد حتمًا شكلًا من أشكال الدعاية، مّا لم ينبع

من علاقة بالمسيح مبنيّة على الحبّ الشخصيّ، علاقة قلب بقلب المسيح. فلأنّنا اختبرنا الحبّ في علاقتنا بالربّ، فنحن نتمنّى من صميم قلوبنا أن يختبره أيضًا أولئك الذين يُحيطون بنا. ولا نبغي أن نستميلهم إلى قضيّة معيّنة أو مشروع معيّن، بل أن نساعدهم على أن يكتشفوا مثلنا الطريق والنور والحياة الحقيقيّة.

الدعوة إلى التوبة

يكمن دور الحياة الرهبانيّة في أمر حسّاس، وهو تغيير مواقفنا، وقد يكون هذا الدور حاسمًا في الكنيسة. ولا يعود هذا الدور فقط إلى أنّ الحياة الرهبانيّة قامت دائمًا في كنائس الشرق المسيحيّ بدور حيويّ - ولا يزال هذا حقيقيًّا في أيّامنا - بل خصوصًا لأنّ الحياة الرهبانيّة تشهد على توبة القلب، والكنيسة في حاجة ماسّة إلى ذلك لكي تتعمّق في الإيمان. يحضرنا دومًا تطلُّب المجمع الڤاتيكانيّ الثاني: «إنّ الرهبان، بحُكم حالتهم، يشهدون شهادة نيّرة وفريدة على أنّ العالم لا يقدر أن يتجلّى ويصبح تقدمةً إلى الله، بدون روح التطويبات» («نور الأمم» عدد ٣١).

فليس المطلوب حضور الحياة الرهبانيّة في بداية خلق الإنسان ولا في التزاماتها الاجتماعيّة والسياسيّة، بل حضور مرئيّ ومحسوس لقدرة إرادة الله الخلّاقة، لكي يتقوّى بها جهدُ الإنسان، فلا يفقد نفسه، بل يستطيع أن يُخلِّص القِيَم الإنسانيّة ويُغيِّر وجه البشريّة، في قوّة الأرض الجديدة والسماوات الجديدة التي نراها تحلّ بيننا.

إن كان التبتُّل يُخلِّص - في نظر الله ونظر الشخص البشريّ - الحبَّ والأمانة، وإن كان الفقر يُخلِّص - في نظر الله ونظر الشخص البشريّ - الغِنى والمجّانيّة، فإنّ الطاعة تُخلِّص - في نظر الله ونظر المجتمع البشريّ - عمل الخلق وعمل خلاصنا الذي لا يريد الله أن يحقّقه من دوننا، والذي لا نقدر أن نحقّقه نحن إلّا فيه ومعه وبه.

إنّ الشعور بمحض مجّانيّة عمل الله من جهة، ودوام الانفتاح على

مفاجآت الروح القدس الذي يُكمِّل معنا بلا انقطاع عمل المسيح السخيّ المُحبّ من جهة أخرى، يُهيِّئان الراهبات والرهبان لأن يُساهموا مساهمة فعّالة في عمل الكنيسة. سيقدِّمون إليها على صعيد العاطفة والعمل يدَ العون، لكي تؤدّي وظيفتها، لا كأنّها «برلمان» أو «مؤتمر»، بل كجماعة كنسيّة حقيقيّة، فنسير معًا على طريق واحد، ويُرافقنا الربُّ كي يفتحنا على البُشرى ويُرشدنا إلى الحقّ كلّه عبر اتّجاهاتٍ وقرارات ملموسة.

الخاتمة

من الواضح الآن أنّ الحياة المُكرّسة لم تفقد قطّ دورها الحاليّ في سبيل الكنيسة، شرط أن تجرؤ أن تعيش السرّ الفصحيّ فتموت وتقوم مع ربِّها. إنّه لأمر مُشجِّع أن نرى أنّ الحياة المُكرّسة مُصمِّمة على أن تعيش – على الصعيد الجماعيّ، والصعيد الشخصيّ – روحانيّة الكتاب المقدّس كما كان الربُّ يشرحها على طريق عمّاوس. وإنّه لأمر مُشجِّع أيضًا أن نرى الرهبانيّات تعود إلى منابع تأسيسها، ومن منطلق هذه العودة تُجدِّد في ربِّ الحياة اقترابها من الفقراء وخدمتها لهم، وإحساسها بأنّها مُرسَلة، حتّى تتقبّل خدماتٍ جديدة في قلب الكنيسة، انطلاقًا من جماعة أخويّة وإرساليّة.

قد يصحّ أنّ ظلال الموت يُخيِّم على الحياة المُكرّسة، غير أنّ الإيمان – الجماعيّ والشخصيّ – بفصح الربِّ، يكشف في الضعف البشريّ حيويّةً حقيقيّة تُظهر عملَ الروح القدس وتُبيِّن أنّ هذا النهج الحياتيّ يُريده الله الذي أقام يسوع من الموت في سبيل الحياة، بل لتفيض الحياة.

نقلها إلى العربيّة
الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ